

1087-رمضان، والدين، والإيمان، والثقافة، والإسلام؟؟

تعتة الوفد

علاقة الدين بالثقافة علاقة وثيقة دقيقة، حتى أن ت.س. إليوت، وهو الشاعر الناقد الباحث كاد يرادف بينهما في كتابه: "ملاحظات حول تعريف الثقافة" وهو يذهب في ذلك إلى أبعد الحدود، فينتبه المترجم "د.شكرى عياد" إلى مبالغته، ويجذرنا منها، فيقول في مقدمة الترجمة كيف أن "إليوت" قد تأثر في قضايا معينة بميوله الشخصية، حين أكد وألح - مثلا - على ".فكرة ارتباط الدين بالثقافة". يقول د. عياد في ذلك إنها "فكرة لا أحسب أن أحدا من الباحثين ينكرها، أو يستطيع إنكارها، إلا أن إليوت يؤكد هذا الارتباط تأكيدا يكاد يحو الفرق بين الثقافة والدين، أو يجعلهما مترادفين في كثير من الأحيان، فأضيف: الثقافة التي يتناولها إليوت بالفحص والمراجعة ومحاوله التعريف، هي نسيج الوعى الجمعى، وشبكة العلاقات والتقاليد" من أول طهى الملوخية إلى حفلات السبوع مرورا بالعبادات والعبادات، (ضرب إليوت مثلا: أنه من أعراض انحدار الثقافة في بريطانيا عدم المبالاة بفرن إعداد الطعام). إن هذا الاتساع في المفهوم هو الذى يمكنه أن يحوى الدين والثقافة كمترادفين.

عددت في الأسبوع الماضى ثمان قضايا نيهت إلى خطورة الانغلاق في إقرارها كشعارات راسخة بـ "نعم" دون خلخلتها بـ "لكن"، وكان من بينها شعار "الإسلام هو الحل". جاءنى احتجاجات كثيرة حتى الرفض فانتبهت إلى ضرورة توضيح علاقة هذا الشعار بالثقافة والدين على حد سواء.

لقد نسى الذين رفعوا هذا الشعار "الإسلام هو الحل" وأفرطوا في استعماله لأغراض مختلفة أهمها الانتخابات، نسوا أو تجاهلوا أن يبذلوا الجهد الكافي ليشرحوا لنا "أى إسلام" "هو الحل"؟ وما علاقة ذلك بالثقافة؟ إذا رجعنا ننطلق من اجتهادات ت.س. إليوت في نفس العمل لوجدناه يقرر: "إن ثقافة تحقق ديننا يتحقق أيضا في ثقافات أخرى هي ... أرقى من ثقافة تختص دون غيرها لدين من الأديان"، يقول إليوت أيضا: "إن الدين الواحد يمكن أن يمد ثقافات شتى" ثم يردف:

"الثقافة في جوهرها هي تجسيد لدين الشعب" ثم يبين أنه "من الملاحظ أنه في بعض الأديان يصل التمايز إلى ظهور دينين في الواقع، دين العامة، ودين للخواص.

فهل فكر رافعوا شعار "الإسلام هو الخل" أن ثمَّ إسلام للعامة، وإسلام للخاصة؟ وهل هناك إسلام شعبي، وإسلام رسمي؟ وهل هناك احتمالات أخرى؟

من هنا وجب التوقف طويلاً عند هذا الشعار ونحن نبحث مدى احتمال تطابق الدين مع الثقافة، ثم لنا أن نتساءل: كيف يكون الدين الرسمي الواحد "هو الخل" مع وجود ثقافات كثيرة؟

يا ترى على أى إسلام ينطبق هذا الشعار: "الإسلام هو الخل"؟ أى إسلام هو الخل؟ الإسلام الرسمي أم الإسلام الشعبي؟ وهل هناك تناقض بين هذا وذاك؟ حين يتبدى الدين في السلوك كثقافة فإنه يصبح متعدد التجليات متنوع الدلالات؟ فكيف يتم التوفيق بين الدين الشعبي، والدين الرسمي؟ أو بين دين العامة ودين الخاصة من العلماء؟ وهل هناك خوف من أن يكفر الخاصة العامة ويرفضون ممارساتهم، أو أن يُطَبَّل (بالعامية: يطنش) العامة الخاصة ويمارسون الدين بتلقائيتهم وفطرتهم؟

محاولة الرد على هذه الأسئلة خشية الخلط في التطبيق لابد من التوقف، لنعيد تعريف الثقافة بالمعنى الأفضل، ومن ثم بعلاقتها بالدين، وهنا يجدر بنا أن نرجع إلى إلبوت وهو يقول: "إن ثمة وجهاً يمكننا أن نرى منه الدين على" أنه كل طريقة الحياة لشعب من الشعوب، من المهد إلى اللحد، من الصبح إلى الليل، وحتى أثناء النوم، وطريقة الحياة وهذه هي الثقافة أيضاً".

ثم يحل رمضان، فأجدها فرصة لتوضيح الأمر:

إنه بمجرد حلول شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، يتجسد أمام أعيننا تعدد الثقافات، وبالتالي تعدد السلوكيات المتصلة بالدين بشكل مباشر أو غير مباشر. رمضان هو شهر تكتمل بصومه أحد أركان الإسلام الخمسة، صوم رمضان هو ببساطة عبادة وفريضة إبداعية جميلة دورية، تعود كل عام تذكرنا بما ينبغي أن نتذكره، فنذكره، أو نتذكر له ونحن نتصور أننا نتذكره، أما حقيقة ما نعيشه من تنوع علاقتنا بـرمضان فهو خير دليل على تنوع ثقافاتنا الفرعية، وبالتالي هو إشارة ضمنية إلى صواب رأى ت. س. إلبوت ولو جزئياً، عن علاقة الدين بالثقافة من ناحية، وعن تنوع الثقافات وتضفرها إن أمكن، بما في ذلك الثقافات الفرعية من جهة أخرى،

وفيما يلي مجرد عناوين لمثل هذه الثقافات الفرعية التي تتجلى في رمضان، وسوف أكتفى بعرض أسمائها على محاور أربعة:

المحور الأول: محور العبادة والتقرب إلى الله (وهو الأصل)، فثمَّ رمضان الصوم = الامتناع عن الأكل والشرب والمعاصي حتى اللحم، وثمَّ رمضان صلاة القيام، وثمَّ رمضان تلاوة القرآن، وثمَّ رمضان صلة الرحم، وثمَّ رمضان التوبة والإنابة

الخور الثاني: رمضان الثقافة الشعبية: فتمَّ رمضان الفانوس، وتمَّ رمضان المسحراتي، وتمَّ رمضان سهرات الدواوير والمقاعد حول تلاوة القرآن والتزاور، وتمَّ رمضان الحضرات والذكر الجماعي البهيج، وتمَّ رمضان أهازيج وداعه قرب نهايته.

الخور الثالث: تنوع الثقافات الفرعية حسب البعد الجغرافي: فتمَّ رمضان القاهرة، وفي القاهرة نفسها: تمَّ رمضان الحسين، وتمَّ رمضان الهلتون، وتمَّ رمضان الزمالك، وتمَّ رمضان باب الفتوح، وتمَّ رمضان سوق السلاح، وتمَّ رمضان الرحاب، ثم تخرج إلى خارج الحدود فنجد الاختلافات الثقافية بين رمضان القاهرة، ورمضان مكة المكرمة، ورمضان صفاقس بتونس، ورمضان باريس، ورمضان لوس أنجلوس، ورمضان بنجلاديش

الخور الرابع: مستوى الترفيه وتزجية الوقت فعندك: رمضان المسلسلات، ورمضان الفوازير، ورمضان الولايم بتباهي أو بغير تباهي، ورمضان السهر والهزج، ورمضان الكسل واللاعمل، ورمضان قلب الليل نهارا والنهار ليلا.

وبعد

إذا كان التطبيق العملي بالنظر في تنوع الثقافات بالنسبة لتجليات تتعلق بعبادة واحدة هي "صوم رمضان" يقربنا من رأى ت.س. إليوت عن علاقة الدين بالثقافة، وبالتثقافات الفرعية، فهل يساعدنا ذلك في إعادة النظر في الشعار المطروح "الإسلام هو الحل" إذ نتبين أن الإسلام ككل هو أيضا ثقافة كلية تتجلى بأشكال وأنماط مختلفة في كل جماعة حسب ظروفها التاريخية والجغرافية وحسب أعرافها وتقاليدها وثقافتها الفرعية؟

وإلى أن أرجع إلى تناول تجليات الإسلام الثقافية وبالتالي تنويعات الإسلام المحتملة (دون المساس بالجواهر) أكتفى بالتذكرة بأن الإسلام بداية ونهاية، ليس إلا وسيلة تسهل السعى إلى الإيمان من كل صوب وحذب، بكل ثقافة وابتهاال وعبادات وكدح إلى وجه الحق تعالى.

"قالت الأعراب آمننا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم" صدق الله العظيم.

يصلني من هذه الآية الكريمة أن الإسلام هو طريق إلى الإيمان حتى يدخل في قلوبنا

يقول إليوت أيضا: "كلما كان الدين أرقى كان الإيمان به أصعب بكثير"،

نحن كمسلمين - مثل معظم أصحاب الديانات التي لم تتشوه - نتصور أو نوقن أن الإسلام هو الدين الأرقى، فهل معنى ذلك أن الإيمان هو أصعب بكثير؟ وهل نحن فعلا نمارس في رمضان أو غير رمضان ما هو أصعب كدحا إليه ليدخل الإيمان في قلوبنا؟

أرجو أن أغطي في مقال قادم بعض تجليات الإسلام - جغرافيا وعرفيا - دون المساس بجوهره ومن ذلك البحث في الفروق بين كل من: الإسلام النجدي، الإسلام المصري، الإسلام التونسي، الإسلام الروسي، الإسلام الثوري، الإسلام الاسماعيلي، الإسلام الملكي السلطوي، الإسلام الخميني، الإسلام الخليجي، الإسلام الأمريكي الأسود، الإسلام الحماسي، الإسلام الجارودي (نسبة إلى روجيه جارودي) الإسلام الأمامي!!... (نسبة إلى أوباما، وغير ذلك!!).

فأى إسلام بين كل هذا "هو الحل"؟